الخطاب القرآني بين " تيودور نولدكه " و"الجابري"

محمد الطاهر حمازة

– قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة باجي مختار–عنابة، hamoudi2282@hotmail.fr

تاريخ الإيداع: 2015/01/19 **تاريخ المراجعة:** 2016/11/21 **تاريخ القبول:** 2017/01/11

ملخص

يعتبر محمد عابد الجابري من أهم الدارسين المعاصرين للقرآن الكريم، إذ شغله المنهج التاريخي فألف اعتمادا عليه بحثه "مدخل إلى القرآن الكريم" ثم أتبعه بتفسير يعتمد على ترتيب نزول الآيات. نقارن في دراستنا هذه بين الجابري والمستشرق "تيودور نولدكه" مؤلف كتاب" تاريخ القرآن" على اعتبار القواسم المشتركة بينهما، والمجسدة في المنهج وفي المواضيع المتناولة.فإلى أي مدى اتفق واختلف الباحثان في دراستهما للقرآن الكريم من حيث هو خطاب له خصوصيته وقدسيته؟ .

الكلمات المفاتيح: القرآن، خطاب، خطاب قرآني، مقارنة.

Quranic discourse between theodore-noeldeke and El-djabiri

Abstract

Mohamed Abed El-Djabiri is considered as a most contemporary philosopher and thinker who works on the quranic field studies applied the historical approaches, when it was appeared in his book titled ‘’introduction to Quran‘’. He followed his researches on the same quest with an interpretation of quran based on order of verses .In our study, we will compare between him and Theodore – Noeldeke, the author of ‘’History of Quran‘’, considering the similarities of both autors. To what extent did the two researchers agree and disagree in their study of the Noble Quran as it is a discourse that has its own privacy and sanctity?

Keywords: Quran, discourse, quranic discourse, comparison.

Le discours coranique entre Théodore Noeldeke et El-Djabiri

Résumé

Mohamed Abed El- Djabiri est considéré parmi les importants penseurs et chercheurs dans le domaine des études coraniques contemporaines. Il était préoccupé par les approches historiques. Il a mené sa recherche, "Introduction au Noble Coran" sur cette base, puis l'a suivie d'une interprétation basée sur l'ordre de révélation des versets. Dans cette étude, nous comparons entre Al-Djabiri et l'orientaliste "Theodor Noldeke", auteur du livre "Histoire du Coran" sur la base des dénominateurs communs entre eux, incarnés dans le programme et dans les sujets abordés. Dans quelle mesure les deux chercheurs étaient-ils d'accord et en désaccord dans leur étude du Noble Coran car c'est un discours qui a sa propre vie privée et sa sainteté?

Mots-clés: Coran, discours, discours coranique, comparaison.

المؤلف المرسل: محمد الطاهر حمازة، hamoudi2282@hotmail.fr

توطئة:

يبرز من خلال هذا العنوان:

"الخطاب القرآني بين تيودور نولدكه والجابري" أن هناك مصطلحات يجب الوقوف عليها، وكذلك أعلاما اختُصت بهذه المصطلحات وأول هذه المصطلحات هو "الخطاب" وثانيها هو "الخطاب القرآني" الذي يُبرزُ القرآن خطابا؛ حيث سنأتي إلى توضيحهما بحسب ما نتبناه من آراء، حسبنا أنها جديرة بالاهتمام لنجاعتها في تحليل الخطاب القرآني.أما عن الباحثين تيودور نولدكه ومحمد عابد الجابري، فالأول مستشرق ألماني (1836–1930م) أصدر كتابا سنة 1860م بعنوان (تاريخ القرآن) عالج فيه مسألة نشوء نص القرآن الكريم وجمعه, وروايته... كما اقترح تسلسلا وترتيبا للسور يختلف عن زمن ترتيبها حسب زمن نزولها.

تعود أهمية هذا الكتاب إلى أن الباحث عندما منعه تقدم السن طلب من "فريدريش شفالي" إعادة صياغة الجزء الأول، فتم له ذلك سنة 1909م، إلا أن وفاة شفالي عام 1919م حالت دون معاينة صدور الجزء الثاني فأضاف "أوغست فيشر" بعض التصحيحات عليه وأصدره بعد وفاته، أما الجزء الثالث الذي انتقلت مهمة إنجازه إلى "غوتهاف برغشترسر" الذي توفي عام 1929م فأكمله تلميذه "أتوبريتسل" في مطلع سنة 1937م. وبالتالي تعاقبت ثلاثة أجيال على هذا الأثر وهو ما جعله جديرا بالاهتمام[1].

وأما عن محمد عابد الجابري (1936م–2010م) فهو ناقد وفيلسوف معاصر، يطرح الأسئلة القديمة بمنهجية جديدة؛ إذ كتب: "مدخل إلى القرآن الكريم" كدراسة تتناول القرآن الكريم تعريفا ثم أتبعها بتفسير في ثلاثة أقسام راعت الترتيب التنزيلي.

تحاول هذه الدراسة أن تقارن بين رؤيتي الباحثين بعد عرضهما ولكن قبل ذلك علينا أن نوضح مفهوم "الخطاب" ثم "الخطاب القرآني" كما سبق الذكر كي تسهل علينا مقارنة المبحوث فيه بينهما.

1– مفهوم الخطاب:

نتبنى في هذه الدراسة رؤيتين لهذا المفهوم:

الأولى: تتمثل في كون الخطاب لَبنَة من لبنات العناصر التواصلية التي تحتوي كذلك المخاطب والمخاطَب.

الثانية: وتتمثل في أن الخطاب أيًا كان فهو مجموعة من النصوص التي تعبر على نوع من الملفوظ أو الكتابة فمثلا "الخطاب الروائي" عند واسيني الأعرج يقتضي جملة من رواياته المتميزة ببصمته كروائي وكذلك هو الخطاب السياسي أو الإعلامي...[2].

يوجد هذا الخطاب على أنواع مختلفة وكل نوع له خاصّياته وإن كان كثير من الباحثين قد اختلفوا في هذا التنويع أو بالأحرى في ضبط هذه الأنواع، فإن الأمر كذلك يقتضي منا تَبَنّي رؤية معينة، والتي كنا قد لمسنا فيها شيئا من الشمولية في الطرح، ألا وهي رؤية الباحث "منذر العياشي"؛ إن أنواع الخطاب عنده كالآتي[3]:

1– الخطاب الإيصالي:" وله نماذج متعددة: سياسية واجتماعية ووعظية...

2– الخطاب الإبداعي: وهو خطاب يقوم على أساس الأجناس الأدبية.

3– الخطاب القرآني: وهو خطاب إلهي يقوم على أساس الآية الآتية: ﴿ليس كمثله شيء﴾.

لقد قمنا بتبيان الخطاب كما نتبناه في هذه الدراسة بادئ ذي بدء، ثم إننا ننتقل إلى الخطاب القرآني كنوع من أنواع الخطاب، إلا أننا نُسلط عليه الضوء أكثر فأكثر مادام هو عماد البحث:

2- مفهوم الخطاب القرآني:

إنه من بين التعريفات التي تقف وتوضح هذا المفهوم تواصليا، كما تبنينا مفهوم الخطاب سلفا (على أساس العملية التواصلية)، نذكر تعريفي: جورج طرابيشي ومحمد أركون.

أما بالنسبة لتعريف الخطاب القرآني من حيث هو خطاب له خصائصه التي تجعل منه خطابا مغايرا عن الخطابات الأخرى فمن الباحثين الذين تعرضوا لخصائصه نذكر: "علي محمد الصلابي" وفيما يأتي نذكر آراء ورؤى هؤلاء على التوالي:

_ يقول جورج طرابيشي[4]: (تواصلية الخطاب القرآني)

«القرآن خطاب قبل أن يكون نصا وكما في كل خطاب هناك مخاطِب ومخاطَب، وإذا كان الله هو الذي ينفرد باحتلال موقع الفاعل في الخطاب القرآني فإن موقع اسم المفعول يعود حصرا إلى الرسول وحتى عندما يتوجه هذا الخطاب إلى عامة الناس لا إلى الرسول حصرا فإنما يتوجه إليهم عن طريق الذات الإلهية وبلسان حالها فالله هو القائل دوما والرسول هو المأمور بالقول وكلمة قل الموجهة من الله إلى رسوله تتكرر في القرآن 311 مرة...»

من الملاحظ في هذا الكلام أن جورج طرابيشي يجعل الخطاب القرآني منتقلا من مخاطِب هو الله عز وجل، إلى مخاطَب هو الرسول (ص)، بل إن الرسول (ص) هو الوسيط الخطابي أحيانا بين الله وعباده من خلال كلمة "قل" الواردة 311 مرة.

_ ثم يقول جورج طرابيشي أيضا[5]: (تواصلية الخطاب القرآني)

«فبقدر ما يميز الخطاب القرآني بين النبي والرسول بقدر ما يجعل نصاب الأول المعجزة ونصاب الثاني الرسالة فإنه يسمي محمدا في عشرات الآيات (رسول الله) ولا يسميه في آية واحدة (نبي الله)»

يتضمن قول "جورج طرابيشي" استقراءً لكتاب الله الذي ما ذكر قط الملفوظ "نبي الله" على عكس الملفوظ "رسول الله"، إذ إن الرؤية التواصلية للرسالة الإلهية تحصيل حاصل أما أخذها بعين الاعتبار محل الدراسة فذلك ملاذ المتبني لهذا الطرح، إضافة إلى كون هذا الاستقراء لهذه الملفوظات دعما لتناول القرآن الكريم كخطاب محل الدراسة.

يقول محمد أركون[6]: (تواصلية الخطاب القرآني)

«يظهر المقال القرآني في ثلاثة فاعلين أوليين: قائل ومخاطب، مبلغ، ومخاطب جمعي (الناس)»

إن هذه البنية التواصلية التي يوضحها محمد أركون يمكن أن نضعها في الترسيمة الآتي:

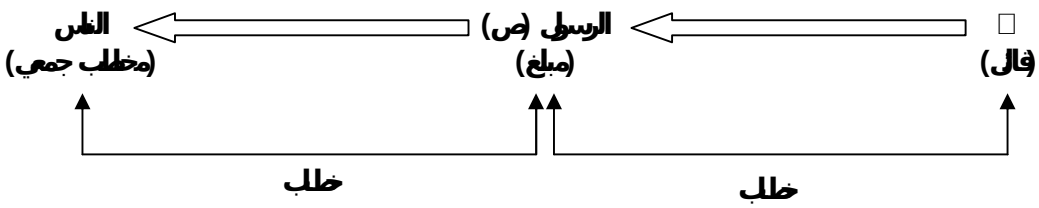

ومن الملاحظ هنا أن الرسول (ص) هو المرسل إليه الأول الذي يتلقى الخطاب القرآني قبل المرسل إليه الثاني (الناس) كما أن الله عز وجل هو المرسل الأول قبل الرسول المرسل الثاني. إلا أن هناك عنصرا تواصليا آخر قد أضافه محمد أركون في دراسة لاحقة وهو يحلل سورة التوبة هو المرسل إليه الأول ؛ والترسيمة جاءت كما يلي[7]:

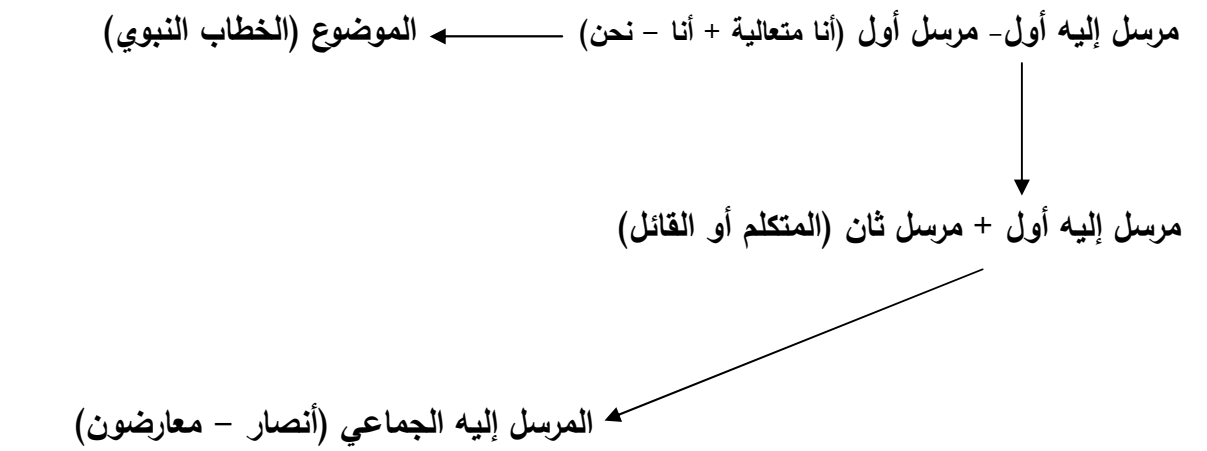

إضافة إلى المفاهيم التي كنا قد طرحناها يبرز في هذه الترسيمة مفهوم المرسل إليه ليعبر عن الله عز وجل كمتلق لأقوال وأعمال الناس، وفي ذلك يستشهد محمد أركون بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[8]؛ إذ يرجع الناس وأعمالهم وأقوالهم لمن أرسل إليهم الوحي بادئ ذي بدء فمنهم المعارضون ومنهم الأنصار[9]، والملاحظ هنا أن محمد أركون قد قسم المرسل إليه الجماعي إلى قسمين متأثرا – كما يبدو – بمخطط (غريماس)، إلا أنه عَدَلَ عن (المساعدين) إلى (الأنصار) أي أنصار الدين وأنصار الرسول (ص).

إن اجتهاد محمد أركون يُبرز قدرة الباحث على التعامل مع المرجعية الغربية؛ إذ كان واعيا حينما جاور كلمة "المعارضين" بـ "أنصار" التي كانت هي أيضا حسنة الاختيار خالية من القلق الاصطلاحي، وهذا يدل على القدرة التحليلية للرجل الذي خطا هذا الدرب في تحليل الخطاب القرآني منذ سنة 1970م عندما كتب أول بحث بعنوان "كيف نقرأ القرآن"[10].

_ يقول علي محمد الصلابي: (خصائص الخطاب القرآني):

«أولى خصائص القرآن أنه كتاب الله تعالى الذي يتضمن كلماته إلى خاتم رسله وأنبيائه محمد (ص)... أوحاه الله إليه عن طريق الوحي الجلي وهو نزول الرسول الملكي جبريل عليه السلام على الرسول البشري محمد (ص)...»[11].

_ ويقول أيضا عن حامل الرسالة ؛عن الرسول (ص):

«إن وضعه من الناحية العلمية معروف عند المشركين فهو:

– بشر منكم وليس من جنس آخر.

– أمي لا يقرأ ولا يكتب »[12].

يشيران هذان القولان إلى فكرتي الوحي والنبوة؛ إذ تلقى الرسول (ص) الوحي فأصبح نبيا وهو الأميُّ بين بني جنسه فجاءهم بالقرآن الكريم مبعوثا به من الله عز وجل ولما كان القرآن يتنزل على مراحل مُنَجَمًا، فإنَّ المخاطَب الجماعي كما يصطلح عليه محمد أركون تلقى الخطاب القرآني على مراحل.

نستنتج مما سبق أَنَنَا اتجاه خطاب ينفرد بخصوصية ترتبط بالوحي الإلهي وبالنُبوة المُحمدية، إضافة إلى كَونه نزل منجما مرتَّبًا تبعا للأحداث؛ وعليه نَخلُصُ إلى العلاقات الآتية:

أ/ الوحي ويتعلق بالمخاطب (الله).

ب/ النبوة وتتعلق بالمخاطَب (محمد ص).

ج/ الخطاب المُنَجَم ويتعلق بالخطاب (القرآن الكريم).

إن هذه التعلقات هي البنيات التي يرتكز عليها الخطاب القرآني ولا يمكن تحليل الخطاب القرآني دون مراعاة هذه البنيات. إن لنا في المستشرق تيودور نولدكه مثالا على ذلك، وكذلك محمد عابد الجابري، وإن كان الثاني قد اتبع الآيات كما أنزلت على عكس الأول الذي غير ترتيبها كما سنبين لاحقا، ولما كان الأمر كذلك فإننا سنوضح آراء المقارَنَين تحليلا ونقدا ...

3. الوحي والنبوة عند تيودور نولدكه:

لعل أول ما يلفت الانتباه لدى تيودور نولدكه هو أنه يصف المخاطَب بالوحي محمدا صلى الله عليه وسلم، بالمصروع كما فعل قبله البزنطيون[13]، وبعد شيء من السفسطة(المغالطة) يقول: «ولم يستطع محمد في أثناء الثوران النفسي الشديد أن يستمع إلى أجزاء كاملة من القرآن، بل إلى كلمات وأفكار مفردة فقط، لهذا السبب يعتبر البحث التاريخي أن ما أوحي به إليه لم يكن مقاطع قرآنية مستقلة بل بالأحرى الكل الأدبي الذي عبر بواسطته النبي عن مضمون الوحي...»[14].

بعد ذلك تُقابلنا فكرة جديرة بالنقد كسابقتها، وتتعلق بشخص النبي (ص) الذي يقوم الباحث بتخطيئه ونقد شخصه دون اللجوء حتى إلى حجج واهية، يقول: «فبالرغم من أخطاء محمد, كانت حياتُه وإنجازاته تقوم على صدق رسالته غير المحدودة»[15].

إن التأكيد على صدق محمد (ص) ورسالته يتنافى وأخطاءه؛ إذ ما جدوى الحرص على تبيان هذا الصدق؟ ما دام المخاطَب بالقرآن للناس كاذبا في كونه مخاطبا من طرف الله عز وجل، يقول نولدكه عن الرسول (ص): «ففيما كان يتمتع بذكاء عَميّ كبير, لم يكن له من دونه أن ينتصر على كل أعدائه، أعوزته القدرة على التبرير المنطقي إعوازا تاما؛ لهذا اعتبر ما حرك نفسه أمرا موحًى به منزلا من السماء ولم يختبر اعتقاده إطلاقا بل اتبع الغريزة التي كانت تدفع به تارة إلى هنا وطورا إلى هناك، ذلك أنه اعتبر هذه الغريزة صوت الله الذي أتاه...»[16].

إن تكذيب المخاطَب بالقرآن يستلزم تكذيب الخطاب وكذلك التشكيك في كونه مخاطبا من قبل الله عز وجل أولا، ولربما أدى هذا الأمر إلى الإلحاد، إن هذا ما يصبو إليه باحث لا يعتمد على أدلة تثبت هذا الزعم كما أن أبسط رد على ذلك هو السؤال التالي: إذا كان الله عز وجل قادرا على بعث الرسول (ص) أَوَلَيسَ قادرا على حفظ رسالته؟ وهي حجة عقلية في هذا المقام تقابلها حجة نقلية لدى المسلمين تتمثل في قوله تعالى في سورة الضحى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[17]. أي أنَّ الله ما قَلَى (ما ترك) محمدا لحظة.

يطعن تيودور نولدكه كذلك في مسألة ورود البشارة بالنبي في الإنجيل حيث يقول: «أما سورة الصف التي يَعد فيها عيسى بأن الله سيرسل من بعده رسولا اسمه أحمد فلا أثر لها في العهد الجديد»[18].

ينتظر القارئ لهذا القول من نولدكه تحليلا أو احتمالات تبرر وجهة النظر هذه، ولكن لا شيء يبرر هذا الكلام سوى ما ورد في هذه الصفحة في كتابه من أن الباحث (مراتشي) يرى أن محمد (ص) اطلع على الكتاب المقدس وأنه ترجم كلمة (أحمد) وهو أمر يُفَنِّدُهُ تيودور نولدكه ذاته بقوله: «ومراتشي يريد بذلك أن يبرهن على ما هو غير معقول؛ وهو أن محمدا كان يفهم اليونانية»[19]. وكما فند هذا القول يفند كذلك أن تكون الترجمة صحيحة في إنجيل يوحنا المتر جم إلى العربية من كلمة (البراقليط) إلى "أحمد"، ليتجه بعد ذلك إلى فكرة تقفل معها كل الأبواب، ألا وهي أن السريانية التي كانت وسيطا بين اليونانية والعربية وكذلك اللغة العربية لا يوجد فيهما ما يدل على هذه الكلمة.[20]

إن هذا المذهب الذي يذهبه تيودور نولدكه يدفعنا أيضا إلى التساؤل الأتي: إذا كان الخطاب الإنجيلي يحتوي كلمات لا توجد لها معان في اللغات الأخرى، فهل معنى ذلك أن هذا الدين(المسيحي) ليس عالميا؟ وإذا كان ليس عالميا، هل هذا يؤدي إلى نقص فيه ,أم إلى تحريف من البشر فيه؟ وهل هذا يعني أن العالم في حاجة إلى خطاب جديد (القرآن)؟ وماذا لو أن العالم في حاجة إلى خطاب جديد؟ حينها تَثبت نبوة محمد (ص) لدى نولدكه وأمثاله...هذا إن لم تكن ثابتة أصلا...

إن المقدمة التي انطلق منها نولدكه بحد ذاتها تجيب عن تساؤلاته، إلا أنه أَبَى سوى الانزواء في زاوية دَحض النبوة ودحض البشارة بالرسول في الإنجيل ودحض القرآن ككل بناء على ما سبق استلزاما...وذلك جَليٌّ في كلامه، ولو أنه يبدو أحيانا مجاملا للقرآن وللرسول في العديد من المواضع من كتابه ؛حتى يصبغ بحثه بشيء من الموضوعية المزيفة, ولعلها سياسته وفلسفته في الإقناع...لاسيما وأنه يحاول الإقناع بإنكار رسالةٍ و رسولٍ، أو إنكار أهم ما يميزه وهو العقل...كما سبق الذكر.

إن في القول: إن الكلمة (البراقليط) _ الورادة دون ترجمة لدى الباحث _ لا يوجد لها معنَى يَقربها استنفارٌ لصحة الكلمة في الإنجيل بعد نبوة محمد (ص) أيضا؛ إذ ما يدرينا إن لم تكن الكلمة قد حُرّفت بعد نزول الوحي على الرسول (ص)؟ وهذا من زاوية اللسانيات التاريخية التي تهتم بالتطور اللغوي عبر الزمن وبالتحولات الطارئة على اللغات من خلال المجاز وتداخل اللغات وطرق الاستعمال وحتميات الاستعمال الاجتماعي وحاجاته...

4 ـ فهم القرآن الكريم وترتيبه عند تيودور نولدكه:

يذهب نولدكه في دراسته للقرآن الكريم مَذهبه من حيث نشأتُه وجمعه وروايته كما يناقش مسألة الترتيب التاريخي للسور, مقترحا ترتيبا يختلف عن ترتيبها بحسب زمن نزولها المعروف في الإسلام وفي كتب علوم القرآن كـ(البرهان) للزركشي و(الإتقان) للسيوطي؛إذ يرى مثلا أن مسألة نزول الآيات(1–5) من سورة العلق «مسألة لا يمكن حسمها حتى لو نُسبت لهذه الآيات أهمية أساسية في قصة الوحي بسبب حثها الشديد على القراءة ؛فإن النص لا يتضمن ما يدعم التقديم التاريخي الذي يأتي به التراث لا بل إن هذه الكلمات يمكن فهمها من حيث المضمون على أنها قيلت في أي وقت نُقل فيه إلى النبي مقطع جديد من الكتاب السماوي...»[21]. فهو يرى أن القرآن الكريم وثيقة من وثائق التاريخ الإنساني علينا أن نربطه بالحياة ثم علينا أن نعيد النظر في جمعه وتعدد قراءاته, معترفاً أن ترتيبه المقترح ترتيب تخميني, وهو ما خرج به من الوهلة الأولى عن معيار العلم المفضي إلى القانون ؛ لكأننا بالرجل بهذا الاعتراف يعلن عن سفسطته قبل ولوج البحث.

يتبنى تيودور نولدكه في فهمه للقرآن الكريم التقسيم المكي المدني, إلا أنه يوزع السور بطريقة مغايرة معتمدا على أداتين كما يدَّعي:

1– النقل التاريخي والتفسيري.

2– مراعاة أكثر الروايات المتعلقة بمكان نزول سور بأسرها أو آيات مفردة ليس فقط في الآثار التاريخية والتفسيرية بل حتى في مخطوطات القرآن[22].

بعد أن طرح تيودور نولدكه هذا الذي يوحي بشيء من العلمية أعاد النظر فقال: «من المستحيل وضع تسلسل زمني دقيق للسور القديمة، لا بل للسور المكية بأسرها. وهل من أحد يود الافتراض أن محمدا كان لديه أرشيفا رتب فيه السور بحسب تسلسلها الزمني؟...»[23].

ولما استدرك نولدكه ما استدرك أعلن عن وسيلة أخرى يقول عنها إنها: «تستحق قدرا أكبر من الثقة»، ثم إن كلامه هذا يوحي بأنه لا يبحث في القرآن الكريم بقدر ما يبحث في آليات تخالف الآليات_كما يعتقد_ و يقول أيضا: «لكننا نملك وسيلة تستحق قدرا أكبر من الثقة وهي وحدها تجعل استعمال التراث بالنسبة لنا مثمرا؛ وهذه الوسيلة هي المراقبة الدقيقة لمعنى القرآن ولغته»[24]. وهنا انتقلنا مع تيودور نولدكه إلى مرحلتي الأسلوبية ثم التأويل، وحتى يوضح فكرته هذه أكثر فأكثر يقول: «ما يلاحظه القارئ السطحي من أن القطَعَ ذات اللغة والأفكار المتأججة لا بد من أنها أقدم من القطع التي تعتبر هادئة وطويلة يزداد ترسخه ويكتسب قدرا أكبر من الدقة لدى المتمعن بها»[25].

إن هذا الكلام لا يعني أن كل الأفكار الواردة في الخطاب القرآني قديمة فإنه يحصل أن نجد أفكارا متأججة وردت مع نهاية الوحي كما وردت أيضا أفكار هادئة في بداية الوحي، ثم إن هناك سؤالا ملحاحا في هذا المنظور؛ ألا وهو: ما هو معيار تأجج الأفكار وهدوئها عند تيودور نولدكه؟ لا يجيبنا الباحث عن هذا السؤال بل يضيف إلى ما قاله: «ولأن محمدا يكرر الكلام في كثير من الأحيان يمكن التمييز بوضوح بين الموضع الأصيل والموضع الذي يحاكيه وكما هي حال كل كاتب، تتميز لغة محمد المستعملة في فترات مختلفة بواسطة عبارات متفق عليها وكلمات معينة مستحبة ومصطلحات تسعفنا على ترتيب السور ترتيبا زمنيا...»[26].

إن هذا التأجج في الآيات وهذا الهدوء في حقيقة الأمر لا يمكن إدراكه في التكرار, ولو أن هذا التكرار يُبرز لنا الآيات المراد منا الاهتمام بها أكثر فأكثر أحيانا ,أو ربما هي لمسات أسلوبية لها أهداف تعتني بها نظرية التلقي أو اللسانيات النصية من باب الانسجام والاتساق ,بل إن تأجج الآيات له معيار وحيد تَجاهله تيودور نولدكه ألا وهو السياق التاريخي لسيرة الرسول (ص)؛ فالقارئ للسيرة النبوية يَعلم أن محمدا(ص) مرَّ بمراحل متأججة لاسيما مع بداية الوحي, كما مر بفترات هادئة فالقرآن كان منسجما مع حياة الرسول...لكن تيودور لن ينفعه اتباع السيرة والاعتراف بتوافق الهدوء والتأجج مع سيرة الرسول, مادام تجاهل السيرة النبوية يفسح له المجال من أجل تغيير مواطن الآيات, كما أن الاعتراف بهذا الانسجام بين القرآن والسيرة يحمل اعترافا بنبوة محمد أيضا وفي هذا مصادرة على المطلوب لما سيقوله تيودور نولدكه فيما سيأتي...

إن أول ما يصطدم به القارئ في هذه الفقرة هو دوغمائية الرجل؛ حيث وإن كان يبدو مسيحيا لا يؤمن برسالة محمد، كان عليه من باب الموضوعية العلمية أن لا ينسب كلام الله إلى نبيه (ص) ثم إنه جعل من التكرار معيارا آخر يتكئ عليه, وهو ما يفتح مسارا آخر لانتقاده متمثلا في التأويل إذ يجعلنا نتساءل: أَبضَم المكرور أم باستبعاده سيفهم القرآن الكريم وترتيبه؟

إن هذا السؤال يرتبط بمسألة عقائدية وهي كون القرآن الكريم نزل منجما كما أخبرنا (محمد صلى الله عليه وسلم) بحسب الأحداث التي طرأت على النبي، أما أن نستبعد آيات عن آيات أو أن نضم آيات لآيات أخرى لا اتساق ولا انسجام بينها فهذا ضرب من الافتراء، وإضافة إلى ذلك فإن هذا الكتاب مُصلحٌ _ ولا أقول صالحًا فحسب _ لكل زمان ومكان، وهو ما يدفع إلى التساؤل أيضا: أباستطاعة البشر أن يفهموا القرآن الكريم بأكمله وهو المنزل حتى لعصور غير عصورهم؟ علما أن النبي (ص)، كما يذهب العديد من الدارسين، لم يفسر القرآن كله[27].

تمثل هذه الفكرة لدى المسلمين دليلا يتعلق بتبرير وجود آيات لن يعيها الإنسان اليوم؛ وهو الأمر الذي يمس أيضا الآيات المكرورات, والآيات المتأججة، والآيات الهادئة... وهي المعايير التي أضافها تيودور نولدكه لرؤيته

التاريخية، بعد أن رأى قصور منهجه فما يراه نولدكه غير مناسب فهو مناسب في سياق آخر أي السياق الديني الخاص بالمسلمين وبالتالي فإننا نجد أنفسنا هنا أما أزمة عقائدية بالدرجة الأولى .

5 ـ الوحي والنبوة عند محمد عابد الجابري:

يرى الجابري أن القرآن الكريم ظاهرة شغلت الألباب في مراحل سابقة حيث تُنُوولَ من الجانب التكويني له ,وهو الجانب الذي سُميَ بـ:" علوم القرآن " على أنَّ هذه العلوم يقصد بها جملة المعارف الدائرة حول مختلف جوانب النص القرآني حتى إنه ليخيل إلى المرء اليوم أنه لم يعد هناك مجال للمزيد[28]، إلا أن الجابري في نفس الآن يؤكد وجوب طرح السؤال من جديد بحسب ما يوافق عصرنا في محاولته (مدخل إلى القرآن الكريم): «كل ما نعد القارئ به هو أننا سنحاول الخروج من شرنقة السؤال القديم لنعيد طرحه داخل شرنقتنا، علما بأن شرنقتنا نفسها ليست سوى واحدة من حلقات تاريخنا الثقافي ولحظة من لحظات تطور وعينا»[29].

إن الرؤية هذه تحمل فلسفة الجابري في البحث ,والحق أن الباحث قد اعترف ولو ضمنيا بتأثره بمنهج المستشرقين[30]، الذين يمتطون السؤال والمقارنة، ماداموا لا يملكون نفس المرجعية والمنطلقات التي يملكها المسلم، وهو ما يوجد تبريرا لهم ,وما يهم هنا هو أهمية طرح السؤال والتفكير بروح العصر عند الجابري؛ الأمر الذي يخلق هامشا من الحرية لدى الباحث العربي الذي ظن أن السابق ما ترك للاّحق شيئا يبحث فيه بعد أن تم الاصطلاح على ما سمي بـ (علوم القرآن).

إن القول بتأثر الجابري بمنهج المستشرقين يحمل نوعا من القلق العلمي نظرا لما عرف به بعض المستشرقين من ذاتية ودغمائية، وبسبب المخيال السلبي الذي كونه المسلم جراء العوامل الاستعمارية والازدرائية عبر الزمن من الآخر، إلا أن الجابري من خلال تفكره العميق ودقة ملاحظته يوضح جليا الرؤية الاستشراقية وخلفية الآخر، فإلى أي مدى تُراه يصيب في تبنيه السؤالَ وروحَ المعاصرة العلمية التي يريد إصباغها على الخطاب القرآني الموسوم بالتواصلية ,وبالوحي, وبالتنجيم نزولا على النبي(ص) [المرسل إليه أول] كما يسميه محمد أركون.

يذهب الجابري إلى أن النبي (ص) لم يكن أميا الأمر الذي يثير الدهشة؛ لأن هذا الطرح يخالف ما هو متعارف عليه في تراثنا ودليله في ذلك هو «أن لفظ (أميّ) لفظ معرب لا أصل له في اللغة العربية»[31]. والأساس الذي جعل الجابري يؤمن بهذه الرؤية هو أن كثيرا من الباحثين يرون «أن اليهود كانوا يطلقون لفظ (الأمم) على غيرهم من الشعوب أي على (الوثنيين) من عبدة الأصنام وغيرهم وأن الأمي بهذا الاعتبار منسوب إلى الأمم فكما كان الرومان يطلقون على غيرهم من الأمم اسم (باربار) بمعنى المتوحشون وكما كان العرب يطلقون على غيرهم من الشعوب لفظ (العجم)... فكذلك كان اليهود يطلقون على غيرهم من الشعوب لفظ الأميون أي المنسوبون إلى الأمم الأخرى التي ليس لديها كتاب منزل»[32].

إن المعروف عن كلمة (الأميّ) في معاجمنا لا يحمل نفس المدلول الذي ينقله لنا الجابري بل إنه يتعارض معه تماما إلا أن ذلك له تبريره التاريخي عند الدارسين حيث يقول: «كل ما فعلته تلك المعاجم هو أنها حاولت أن تجد لهذا اللفظ صلة مع لفظ الأم وكان اللغوي الزجاج قد اقترح أن يكون لفظ (الأمي) نسبة إلى الأم ثم أوله تأويلا فقال: سمي بذلك لأنه يكون على الحال التي تلده عليه أمه: لا يقرأ ولا يكتب! وقد أخذ عنه آخرون هذا (التأويل) وتبناه صاحب لسان العرب مما أعطى له صدقيته فصار (الأمي) هو من لا يعرف القراءة والكتابة»[33].

بعد ذلك يقوم الجابري بتأويل التأويل؛ حيث يحلل قوله هذا مؤولا هذا النسق المنوط بالزجاج؛ إذ يقول: «وواضح أن هذا مجرد تأويل وهو في نظري تأويل ضعيف ذلك أن الزجاج توفي سنة 310 هـ فليس هو من جامعي اللغة، فعصر جمع اللغة كان قد انتهى وجاء بعده (عصر الكلام) في اللغة والعقائد...إلخ... والزجاج (متكلم) فيهما والمتكلم (مؤول)..»[34].

إذا كان قول الزجاج تأويلا فكذلك قول الجابري لا يخلو من التأويل، وليس هو من القول الفصل البتة, أضف إلى ذلك أن المتكلم فيلسوف كما هو الجابري فيلسوف فإذا كان الزجاج قد ذهب إلى أن الأمية هي عدم الدراية بالقراءة والكتابة، فإن الجابري أوَّلها إلى كونها تعبر عن نبي من الأمم التي لم ينزل فيها الكتاب بل إن الزجاج قد يكون أقرب إلى الحقيقة لاقتراب عصره من عصور الاحتجاج اللغوي مقارنة بالجابري وهو دليل لا يتمتع بكونه ضروريا ولكنه زمنيا مشروع في اعتقادنا.

يشير الجابري إلى قيام جدل كبير بين علماء الإسلام وعلماء المسيحية حول مسألة البشارة بالنبي (ص) في التوراة والإنجيل إذ أكد القرآن ذلك في آيتين؛ قال عز وجل:

– ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ**﴾[35].

– ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾[36].

يرى الجابري أن الآية الثانية من سورة الصف هي الأكثر مجادلةً لأهل الإنجيل خصوصا وإن كان بعضهم يشير إلى الكلمة (أحمد) على أن أصلها يعود إلى اليونانية (paracletos) التي معناها: المعزي، المشير، المدافع، الروح القدس، وروح الحق وليس كما يدعي المسلمون أنها وردت على صيغة perikutos ومعناها: الشهير، المحمود، المحبة، النبيل، الممتاز[37].

6- المقارنة بين نولدكه والجابري:

1- لقد انتُقد الجابري بشدة من طرف العديد من الباحثين[38] على منهجه واعتُبر محاكيا لمنهج المستشرق نولدكه، فإن كان اعتمد على ترتيب النزول فإنه لم يخضعها لذوقه وللرؤية الأسلوبية وإلى طول وقصر الآيات كما فعل نولدكه.

2- لقد طعن نولدكه في نبوة رسالة محمد (ص) من خلال قوله: إن محمدا أعلن عن سور أعدها بتفكير واع وبواسطة اعتماده على قصص غريبة، أما الجابري فقد طعن في الكلية الإعجازية للرسول عليه الصلاة والسلام بنفيه أميته عنه وهو الذي أعجز العرب بالقرآن رغم أميته، اعتمادا على حجج واهية رهينة بالتطور الدلالي لكلمة أميّ.

3- لم يتبع الجابري نولدكه في عدة مسائل، ومن ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم عند نولدكه أتى بالشعر مُدخلا عليه بعض التعديلات, وليست إشارته في بداية تفسيره إلى (نولدكه) كدراسة سابقه, أو اتباعه تقريبا نفس الرؤية الترتيبية دليلا على أن الجابري_ كما ذهب بعضهم _ متأثر بالشبه الاستشراقية[39].

4- يرى نولدكه أن بداية الوحي أي نزول الخمس آيات الأولى من سورة العلق مسألة لا يمكن حسمها ما دامت هذه الكلمات يمكن فهمها على أنها قيلت في أي وقت نقل فيه إلى النبي مقطع جديد من الكتاب فأمر بالقراءة, أما الجابري فبداية الوحي عنده بحسب الروايات تبدأ من هذه الآيات.

5- تضاربت الآراء بين المسلمين والمسيحيين في ترجمة الكلمة المبشرة بإتيان رَسُول بعد عيسى عليه السلام وهو أمر يوضحه الجابري _كما سبق الذكر_ بموضوعية أكثر من نولدكه، إلا أن المنهج التاريخي نفسه والفلسفة الديكارتية ذاتها التي استعملها نولدكه تُفكك مقولة المسيحيين في أن الكلمة تعني: المُسير أو المدافع أو غير ذلك ما دام السؤال يطرح نفسه قائلا: وما يدرينا إن كانت الكلمة قد حرفت بعد نزول الوحي على محمد (ص), أو أنه حدث لها تغيير أو تطور دلالي من وجهة نظر اللسانيات التاريخية؟

الهوامش:

1- تيودور نولدكه، تعديل: فريديرش شغالي، تر: جورج تامر وآخرون، منشورات الجمل، بغداد 2008، ط4، ص 5 (من مقدمة المترجم).

2- عبد الملك مرتاض، في مراسلة إلكترونية لنا معه يوم: 12/05/ 2012.

3- منذر العياشي، مقالات في الأسلوبية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1990، ص 216.

4- جورج طرابيشي، من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث، دار الساقي، بيروت، لبنان، 2011، ط2، ص 9.

5- المرجع نفسه، ص 10.

6- محمد أركون، الفكر المعاصر، تر: عادل المعوي، منشورات عويدات، بيروت، ط3، 1958، ص 35.

7- محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، تر: هاشم صلاح، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط2، 2010، ص 62.

8- سورة البقرة، الآية 156.

9- ينظر: محمد أركون، من تعميم الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص 62.

10- المرجع نفسه، ص 5.

11- علي محمد الطلابي، الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط1، 2011، ص 27.

12- المرجع نفسه، ص 32-33.

13- تيودور نولدكه، تاريخ القرآن، ص 23.

14- المرجع نفسه، ص 25.

15- المرجع نفسه، ص 27.

16- المرجع نفسه، ص 5.

17- سورة الضحى الآية 3

18- تيودور نولدكه، تاريخ القرآن، ص 9.

19- المرجع نفسه، ص 9.

20- المرجع نفسه، ص 9.

21- المرجع نفسه، ص 76.

22- المرجع نفسه، ص 53-54.

23- المرجع نفسه، ص 57-58.

24- المرجع نفسه، ص 58.

25- المرجع نفسه، ص 58.

26- المرجع نفسه، 59.

27- هناك من يذهب إلى كون الرسول (ص) قد فسر القرآن كله وهناك من يخالف هذه الفكرة إلا أننا نتبنى الرأي الثاني ما دام القرآن منفتحا على كل العصور والأزمنة، وللاستزادة:

ينظر: محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، 2003، ط8، ج1، ص 39، وما بعدها.

28- محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2007، ط2، ص 20.

29– المرجع نفسه، ص 23.

30– المرجع نفسه، ص ص 20 – 21.

31– المرجع نفسه، ص 38.

32– المرجع نفسه، ص 38.

33– المرجع نفسه، ص 95.

34– المرجع نفسه، ص 95.

35– سورة الأعراف، الآية 57.

36– سورة الصف، الآية 6.

37– محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، ص ص 36–37.

38– ينظر: عبد السلام البكاري والصديق بوعلام، الشبه الاستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن الكريم، منشورات الاختلاف (بالاشتراك)، الجزائر، 2003، ط1، ص 173 وما بعدها.

39– المرجع نفسه، 173 وما بعدها.